المحاضرة الثانية عشر

أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم

أولا: أول ما نزل من القرآن الكريم.

لقد ثبت – في أول ما نزل من القرآن الكريم – نصّان صحيحان؛ أحدهما: يفيد أن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق هي أول ما نزل، والآخر: يفيد أن أول ما نزل هو "يا أيها المدّثر..."، وهما كالآتي:

الحديث الأول: عن أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾..."[1].

(1) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه، أولها: كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي إلى الرسول ﷺ، الحديث رقم: 03.

الحديث الثاني:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "سألت جابر بن عبد الله: أيُّ القرآن أُنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ المدثر: ١، فقلت: أُنبِئتُ أنه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: جاورت في حراء فلما قضيت جواري؛ هبطت فاستبطنتُ الوادي، فنوديت فنظرت أمامي، وخلفي وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأتيتُ خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردا، وأنزل علي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾"[2].

وبإعمال مسلك الجمع بين النصين عند تعارض الأدلة، يتبيّن أنه لا تعارض بين الحديثين، وأن أول ما نزل هو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ابتداء، ثم فتر الوحي وكان أول ما نزل بعد فتور الوحي هو "يا أيها المدّثّر"، لاسيما وقد جاء في بعض روايات الحديث الثاني قوله ﷺ: "...فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء"، كما جاء أيضا في بعض روايات الحديث الأول قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "...ثم لم ينشب أن توفي ورقة وفتر الوحي".

نخلص مما سبق إلى أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق هو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأن أول ما نزل بعد فتور الوحي هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، فالأولى أخبرته بأنه نبي مرسل، والثانية أمرته بالتبليغ[3].

(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: "وربّك فكبر"، الحديث رقم: 4640.

(3) مباحث في علوم القرآن للدكتور محمد دراجي، ص: 61-64.

ثانيا: آخر ما نزل من القرآن الكريم.

اختلف العلماء في أيّ القرآن نزل آخرا على أقوال متعددة، نذكر منها ما يلي:

❖ قيل: آية الرّبا، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ... ﴾ البقرة: ٢٧٨.

❖ وقيل: آية الدَّيْن، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ ... ﴾ البقرة: ٢٨٢.

❖ وقيل: قوله تعالى: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾ النساء: ١٧٦.

❖ وقيل: قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ النصر: ١ – ٣.

❖ وقيل: قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ المائدة: ٣.

❖ وقيل: قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ التوبة: ١٢٨.

وأما القول الراجح الذي عليه جمهور العلماء؛ فهو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١ ﴾ البقرة: ٢٨١، واستندوا في ذلك إلى ما ثبت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، بأن هذه الآية هي آخر ما نزل على قلب رسول الله ﷺ، وأنه لم يعش بعدها إلا تسع ليال[4].

(4) حكاه السيوطي في الإتقان، ج: 01، ص: 78.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يمكن الجمع بين هذا القول، والقول بآية الربا، والقول بآية الدين، لأن هذه الآيات كلها في موضع واحد من المصحف الشريف، وعلى هذا الترتيب: آية الربا، ثم قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ثم آية الدَّيْن فلعلها نزلت جميعا دفعة واحدة[5].

ثالثا: فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم.

– بيان العناية الفائقة التي حظي بها القرآن الكريم منذ زمن النبوة، فقد حفظ لنا الصحابة الكرام كل شيء عن آيات القرآن الكريم.

– تمييز الناسخ من المنسوخ، لاسيما وأن ذلك مما تترتّب عليه الأحكام الشرعية فمتى علمنا أن آية كذا نزلت بعد آية، تقرر أن التي نزلت أولا هي المنسوخة.

– الوقوف على أسرار التشريع الإسلامي، وكيف عالج النفس البشرية، وتدرج بها في الأحكام الشرعية.

– معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه[6].

(5) انظر: **الإتقان** للسيوطي، ج: 01، ص: 77-81، **ومناهل العرفان** للزرقاني، ج: 01، ص: 92-96 **ومباحث في علوم القرآن** للدكتور محمد دراجي، ص: 62-64.

(6) مباحث في علوم القرآن للدكتور محمد دراجي، ص: 64.